

٢٠٠٩ سنة الموسيقى النمسي

موسيقى هايدن تجلب السعادة

نأثر صالح

■ ٢٠٠٩ هي سنة هايدن العالمية وتحفي بالذكرى المئوية الثانية لوفاة الموسيقار النمسي يوزف هايدن (١٧٣٢-١٨٠٩). بهذه المناسبة تستعد دول للاحتفال، والعالم بوجه اهتمامه صوب النمسا والمجر، حيث عاش وأبدع هذا الموسيقار. أمضى هايدن ثلاثة عقود في خدمة الأمراء المجرين من عائلة أسترهازي في القصر الشتوي في آينشتات (مقاطعة بورغتلاند النمسية) والقصر الصيفي في فرتود (غرب المجر)، حيث ألف عدداً من أعماله.

خصصت السلطات النمسية ١٠ ملايين يورو، والمجرية مبلغ ٤٠٠ مليون فورنت (حوالي ١,٥ مليون يورو) لدعم فعاليات المناسبة. والتعاون الثقافي بين البلدين عريق، وهناك أمثلة كثيرة على هذا التعاون، نذكر فرقة هايدن المجرية - النمسية التي أسسها الموسيقي المجرى آدام فيشر قبل عقدين.

يفتح الاحتفال رسمياً في ٣١ آذار (مارس) يوم ميلاد الموسيقار في آينشتات، بحفل يقدمه الموسيقي النمسي نيكولوس هارنونكورت الذي يقوده فرقة Consentus Musicus Wien المعروفة بتقديم الموسيقى القديمة، ويعزف بعض سمفونيات هايدن. وإلى جانب هارنونكورت سيسهم في تقديم أعمال هايدن هناك خلال العام أشهر الموسيقيين العالميين اليوم، من بينهم: تون كوبمان، سير كولن ديفن، جوردن سافال، وأهم الفرق الموسيقية مثل فرقة الحجرة الإنكليزية، أكاديمية الموسيقى القديمة، فرقة فرايبورغ لموسيقى الباروك، إل جوردانو أرمونيكو.

أما في يوم وفاة هايدن المصادف ٣١ أيار (مايو)، فسيقود آدام فيشر فرقة هايدن المجرية - النمسية لتقديم أورتوريو الخليفة. وفي هذا اليوم الذي اعتبر يوم هايدن العالمي، يتولى راديو بارتوك الحكومي المجرى تنسيق البث المتواصل لفعاليات هذا اليوم التي تتوالى منذ الصباح في عدد من العواصم والمدن، مثل بودابست وفيينا وبراغ وباريس ولندن، وهي محطات زارها الموسيقار وقدم فيها أعماله، علاوة على آينشتات وقصر أسترهازي في فرتود.

ولا يقتصر الاحتفال على تقديم موسيقى هايدن، بل يمتد إلى إقامة المعارض والمؤتمرات العلمية والمسابقات وغير ذلك. يقول المدير الفني لسنة هايدن في بورغتلاند النمسي فالتر رايشر: «أطمح إلى إبقاء ذكرى سنة هايدن ٢٠٠٩ في ذاكرة الناس في الشكل الآتي: موسيقى هايدن تجلب السعادة».

وحياة هايدن مثيرة ومتنوعة: ولد في قرية روراو في عائلة ريفية فقيرة لكنها محبة للموسيقى، وكان يجيد الغناء في طفولته، فأعجب به مهندس كنيسة شتفتان في فيينا (كانتور، وهي وظيفة في مرتبة مدير الموسيقى) فأخذه معه وضمه إلى الكورس، حيث درس هناك الموسيقى والعزف في المدرسة التابعة للكنيسة وسكن في الداخلي. غير أن تغير صوته بسبب بلوغه تسبب في تركه الكورس عام ١٧٤٩ بعد نجاحات كبيرة، منها حصوله على مكافأة نقدية من الملكة ماريا تيريزيا بعد حفلة موسيقية في قصر شونبرون. استاجر هايدن غرفة رخيصة وأخذ يعطي دروساً في الموسيقى وينسخ النوتات أو يعزف على الأورغن ليعيل نفسه. وبهذا تمكن من شراء بيانو قديم، وبدأ وضع مؤلفاته، بينها أوبرا لم تصلنا، حازت بعض النجاح. انتبه النبلاء إلى مؤلفاته وأخذوا يستدعونه إلى قصورهم، لكن التحول الحقيقي بدأ عندما عينه الأمير المجرى بال أسترهازي مساعداً لقائد الأوركسترا في فرقته الموسيقية في آينشتات عام ١٧٦١. وبعد إتمام بناء قصر أسترهازي في المجر (في أسترهازا، واسمها اليوم فرتود) عام ١٧٦٦، أخذ الأمير يقضي الصيف في القصر الذي سمي فرساي الصغير لبذخه وروعته. وأضيف مسرح للموسيقى إلى القصر لاحقاً بمشورة من هايدن الذي ترقي في المناصب حتى أصبح المسؤول الموسيقي الأول في بلاط الأمير مكلوش (نقولا) أسترهازي الذي كان محباً للموسيقى وعازفاً

جيداً على أداة الباريتون، وأداة من عائلة التشيلو بسنة أوتار، كتب هايدن ١٧٠ ثنائياً وثلاثياً لها. وفي هذه الفترة ذاع صيت هايدن في أوروبا وأميركا. غير أن الأمير أنتل (أنطوان) أسترهازي الذي جاء بعد وفاة الأمير مكلوش عام ١٧٩٠ حل الأوركسترا وصرف العازفين، لكنه استمر في دفع أجور هايدن احتراماً له. بذلك انتقل الموسيقار للعيش في فيينا، وتفرغ للتأليف وزار بريطانيا مرتين حيث منح شهادة الدكتوراه الفخرية في جامعة أوكسفورد، وهناك دعاه الملك جورج الثالث إلى البقاء في بريطانيا لكنه اعتذر.

وعلى رغم إعادة الأمير مكلوش الثاني خليفة أنتل بعد وفاته تشكيل الفرقة الموسيقية، فإن نشاط هايدن لم يكن مثل سابق عهده بسبب تقدمه في العمر، وبسبب انشغاله في تأليف أعمال ضخمة، مثل أورتوريو الخليفة وأورتوريو الفصول، ويعتبران من بين أنضج أعماله. ويعود تأليف التشيد الإمبراطوري إلى هذه الفترة بصيغة رباعية وترية، وهو التشيد عينه الذي تستعمله ألمانيا نشيداً وطنياً اليوم (وقد استعمله هتلر كذلك، وإن بنص مختلف).

نعرف عن هايدن تأليفه ١٠٧ سمفونيات، وهو أوصل هذا الشكل الموسيقي إلى المرتبة التي نعرفها، وعلى خطاه سار موتسارت وبيتهوفن. إذ كانت السمفونية في عصر الباروك قطعة موسيقية واحدة، غالباً ما كانت جزءاً من مقطوعات أطول، بمثابة المقدمة الموسيقية لها، ثم بدأ هذا القالب بالاستقلال، وتكون في البداية من ثلاث حركات، وبعد تجارب عدة، أخذ هايدن يؤلف السمفونية بأربع حركات (سريعة - بطيئة - منوية راقصة - سريعة)، علاوة على استعماله قالب السوناتا الثلاثي في الحركة السريعة الأولى (عرض الموضوع - تفاعل - عودة إلى الموضوع). حتى أنه أسهم في تطوير قالب السوناتا نفسه، وهو من أدخل في بناء السوناتا وبالتالي السمفونية الانتقال من السلم الكبير إلى الصغير أو بالعكس. من جانب آخر، وظّف هايدن الأدوات الموسيقية في الأوركسترا توظيفاً جديداً لا سابق له، وفقاً للمتطلبات الموسيقية التعبيرية، وأعطى مختلف الأدوات دوراً مستقلاً، بدلاً من وظيفة المصاحبة القديمة. كما تمكن - بعد تجارب عدة - من تطوير استعماله الدرامي لديناميكية الصوت، والانتقال من الموسيقي الخافتة الناعمة إلى الراعدة الصاخبة، وهو أمر غدا أساسياً في التأليف السمفوني. وفي الحقيقة هذه هي لغة هايدن، فهو القائل: «لغتي يفهمها العالم أجمع».

وتحمل غالبية سمفونيات هايدن عناوين خاصة بها، تعكس محتواها أو المناسبة المتعلقة بها، ولا تخلو التسميات وقصصها

”

سمفونية الوداع ألفها عام ١٧٧٢ كي

يوصل رسالة إلى الأمير أسترهازي

ومغزاهها تلمل عازفي الفرقة

الموسيقية بسبب طول فراق عائلاتهم.

ففي الحركة الأخيرة من السمفونية

يبدأ العازفون بإطفاء شموعهم

ومغادرة المسرح وتنتهي السمفونية

بعزف كمان وحيد. فهم أسترهازي

الرسالة ومنح موسيقييه إجازة

“

من الطرافة. على سبيل المثال هناك السمفونية العسكرية (الرقم ١٠٠) وهي من السمفونيات اللندنية) التي أعطيت هذا الاسم بسبب قرع الطبول فيها، وغاية هايدن منها إيقاظ نبلاء لندن والأثرياء الذين يصيبهم الخدر وربما تأخذهم إغفاءة أثناء الحركة الثانية البطيئة للسمفونية. أو هناك سمفونية الوداع ألفها عام ١٧٧٢ كي

السدي نعرفه اليوم من ابتكار هايدن، الذي لا يزال يعتبر أهم مؤلف رباعيات على رغم رباعيات الرائعة التي كتبها بيتهوفن وآخرون ممن أتوا بعده. ألف هايدن ٧٧ رباعية، اشتهرت بينها الرباعيات الروسية والرباعيات البروسية ورباعية العنديل ورباعية القيصر. والرباعية الترتية شكل حميم من أنماط موسيقى الحجرة، يتطلب انسجاماً كبيراً بين العازفين، هو أشبه بسمفونية صغيرة (وهناك تشابه في عدد وطبيعة الحركات الموسيقية في هذين القالبين).

والرباعيات تشكل فناً ربيعياً يصعب تذوقه من دون تمرس موسيقي وصل للذائقة. ولهايدن كذلك عشرات الأعمال في الأشكال الموسيقية الأخرى، مثل الكونشرتو والثلاثي والسوناتا والافتتاحية (١٤ افتتاحية)، ومن الأشكال الغنائية الأوبرا (٢١ أوبرا) والكثير من القداسات (وستقدم كنيسة وسط بودابست خلال هذا العام ١٣ منها). ومن المؤكد أن الكثير من هذه الأعمال سيقدم في مختلف قاعات الموسيقى في العالم أجمع هذه السنة، سنة هايدن العالمية.

HORIZON

تيارات

شباب

آفاق

صحافة